الفاعل في ضوء الاستعمال القرآني

د. طلال يحيى إبراهيم الطويجي
قسم اللغة العربية / كلية الآداب
جامعة الموصل

القبول	الاستلام
٠٦ / ٠٤ / ٢٠٠٩	٠٥ / ٠٢ / ٢٠٠٩

Abstract

The research tackles the study of subject in Quranic use through two aspects; The first one is the decontexualized words, While the second deals with the context ua lized ones in the Quranic sentence.

ملخص البحث

نهض البحث بدراسة الفاعل في ضوء الاستعمال القرآني دراسة دلالية . نحوية، وذلك من خلال محورين، هما : المظاهر الإفرادية، أي ما يتعلق با لصيغة مفردة، والمظاهر التركيبية التي تنشأ من خلال التركيب في الجملة القرآنية، وقد تضمن هذان المحوران دراسة : الإفراد والتركيب، والتعريف والتنكير، والمطابقة في الجنس والعدد بين الفعل وفاعله، والتقديم والتأخير، وأخيرا الاستغناء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله حقّ حمده، والصلاة والسلامُ على مَنْ لا نبيَّ بعده، وبعدُ:

فالكلام على الفاعل [1] يعني الكلام على الحياة ، سواءٌ أكان الفاعل مختاراً في فعله ، أم مُجبراً مُسخّراً ، وسواء أكان مُدْرَكًا بالحواس ، أم غير مُدرَك ، فإن وجوده يعني الفعل والعمل ، والإبداع أو الفشل، ومن ثَمَّ الحياة.

---

(١) نظراً لطول الموضوع فإنّ الباحث اقتصر على الفاعل المسند إليه فعل فقط ، ولم يتناول فاعل الوصف أو الظرف؛ لأنّهما حقيقان بإفرادهما ببحث مستقل؛ لمناقشة توجيهات النحاة لهما.

والتوصيف النحوي للفاعل أنّه صيغة ذات وظيفة أصلية في بناء الجملة ، إذ لا ينعقد المعنى إلاّ بها ، يُسند إليها الفعل أو ما في معناه على سبيل الإثبات أو النفي أو الطلب ، وهي صالحة لتحمّل التغيرات الصرفية : كالتذكير والتأنيث ، والتعريف والتنكير ، والتثنية والجمع ، ما لم تكن اسمًا مبهماً ، وهي تصلح لاستبدال غيرها بها في سياق الكلام ، فضلاً عن كونها صالحة للاستغناء عنها، إذا حقّتها القرائن اللفظية والمعنوية الدّالة عليها، وهي قابلة للتغيير الموقعي . في الأعمّ الأغلب . بناءً على مقتضيات دلالية وبلاغية تستدعي ذلك.

من خصائص الفاعل في الخطاب القرآني:

من نافلة القول أنْ ننبّه هنا على ضرورة تجنب الظلال المعنوية لدلالة المصطلح اللغوية، فاقتضاء الفعل للفاعل لا يعني لزوم القيام به فعلاً ، إذ المعنى الوظيفي للفاعل يتحقق من خلال الإسناد ، وأمّا الدلالة المعنوية فتترشح من خلال السياق والقرائن بأنواعها ؛ لذلك فإنّ من خصائص الاستعمال القرآني للفاعل أنّه لا يقتصر على مَنْ تلبّس بالفعل حقيقة ، أو مجازًا(١) كقوله تعالى : **﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ ﴾** (البقرة: ٢٦١)، وقوله تعالى : **﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾**(الزلزلة : ٢) بل يشمل مَنْ لم يُباشر الفعل إلاّ بالنيّة والقصد ، قال تعالى : **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾** (النور: ١٩)، يقول الرازي (ت٦٠٦هـ) في الآية: «ليُعلم أنّ من أحبَّ ذلك فقد شارك في هذا الذم، كما شارك فيه مَنْ فعله »(٢)، فالمحبّة هنا كناية عن التهيؤ لإبراز المحبوب ، فهي غير الخاطر وحديث النفس ، بل هي المحبة المستمرة المصحوبة برغبة في حصول المحبوب (٣). ومعلوم أنّ الآية في سياق براءة أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) إلاّ أنّ العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.

ونقرأ في قصة ناقة صالح (عليه السلام) قوله تعالى : **﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴾** (القمر:٢٩)، وقوله تعالى: **﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾** (الأعراف:٧٧)، فاسند العقر في الآية الثانية إلى الكبراء مع أنّ الفاعل كان واحدًا ؛ لأن العقر كان عن اتفاقٍ ورضًى منهم (٤). وانطلاقًا من هذا نرى القران الكريم يخاطب اليهود المعاصرين للرسول (ﷺ) بضمير الفاعل لأفعال وقعت من أسلافهم.

---

(١) وظّف الأسلوب القرآني الإسناد المجازي في مواطن كثيرة ، مفيدًا منه في رسم الصور الفنّية الأخّاذة من خلال التشخيص، كما في قوله تعالى: **(وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ)** (الأعراف:١٥٤)، وقوله تعالى: **(فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ۞ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ)**(الشعراء: ١٥٧ . ١٥٨).

(٢) التفسير الكبير: ١٨٢/٢٣.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ١٤٨/١٨.

(٤) التحرير والتنوير: ١٧٤/٨.

ونظراً لشمولية الخطاب القرآني، وتجاوزه حدود الزمان والمكان فإنّه جاء إنسانياً في فحواه وجوهره، فالفاعل في نحو: (**الذين امنوا**) و(**الذين كفروا**)، وقوله تعالى: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾ (النور:٥٦) غالباً ما يكون عامًّ ا في شموله من اتصف بالإيمان أو الكفر إلى يوم القيامة. وكذلك الخطابات التي تتضح فيها صيغة العموم ، كقوله تعالى: ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا** ﴾ (النمل:٦٩، العنكبوت:٢٠، الروم:٤٢)، ومثلها الخطاب الذي يوجّه إلى الرسول (ﷺ). ما لم يُخصص بدليل. فإنّه يأخذ صفة العموم . وكذلك الفاعل المحلى بـ(**ال**) الجنسية، أو (**ال**) الموصولة إذا كان وصفًا مشتقًا فإنّه يأ خذ صفة العموم، كقوله تعالى: ﴿**وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾ (آل عمران:١٢٢، ١٦٠، المائدة:١١، التوبة:٥١،...) ومن هذا القبيل أيضًا ما وظّفه القرآن الكريم من جناس الاشتقاق بين الفعل والفاعل ، كقوله تعالى: ﴿**لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُ ونَ**﴾ (الصافات:٦١)، وقوله تعالى: ﴿**وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ**﴾ (المطففين:٢٦)، وهي ميزة أسلوبية في الخطاب القرآني، ليس القصد منها توظيف صيغة معينة لمقصد جمالي فحسب ، بل هي صياغة مقصودة لتحقيق هدفٍ معنوي ، إذ فيها تكثيف لصورة المخاطبين على ام تداد الزمان وتباين المكان واختلاف الجنس، يجمعهم هدف واحد، وتحدو هم غاية واحدة، فهذا المضمار فليُظهر كلُّ مخاطب راغب في العمل والمنافسة طاقته وليبذل جهده ، فالجميع عند خط شروع واحد . وهذا الملمح الأسلوبي يوحي إلى نفس المتلقي قربه من الله تعالى، فهو سبحانه خالق الجميع، ولا ميزة لأحد على غيره إلاّ بمقدار تقرّبه إلى الله، ويمكن أن نلمس هذه الشحنة الوجدانية في قوله تعالى: ﴿**وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ** ﴾ (إبراهيم: ١٢)، وقوله تعالى: ﴿**قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ**﴾ (الزمر:٣٨).

ومن خصائص التعبير القرآني في موضوع الفاعل ما يمكن أن يُسمّ ى بـ(**الإسناد والإيجاد**)، إذ يتعاقب المسند إليه (**الفاعل**) على فعل واحد، تبعا لمباشرته الفعل، فقد يُسند إلى الموجد الحقيقي، أو المجازي الذي يباشر الفعل في الظاهر ، فمثلاً نقرأ قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا**﴾ (الزمر:٤٢)، وقوله تعالى: ﴿**وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ**﴾ (يونس:١٠٤)، فيلحظ أن التوفي اسند إلى الموجد الحقيقي. ونقرأ قوله تعالى: ﴿**قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ**﴾ (السجدة:١١)،وقوله تعالى: ﴿**تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ**﴾ (الأنعام:٦١)، وقوله تعالى: ﴿**وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ**﴾ (الأنفال: ٥٠)، وقوله تعالى: ﴿**فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ**﴾ (النساء:١٥)، فالإسناد هنا مجازي، وهو لا يلغي إسناد الفعل للموجد الحقيقي جلَّ في علاه.

وقريب مما سبق قوله تعالى: ﴿**فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى**﴾ (الأنفال:١٧) فقد نفى سبحانه وتعالى الفعل الواقع من المؤمنين عنهم، وأثبته لذاته العليّة، ونفى عن رسوله (ﷺ) فعل الرمي في موضع، وأثبته له في موضع آخر: (**وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ**)

لينتهي إلى إسناده إلى الفاعل الحقيقي جلَّ في علاه : **﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾** وقد أوضح ابن جني (ت٣٩٢هـ) ما يبدو من إشكال في الإسناد في الجملة الثانية ، مستمدًا من أصول مذهبه، فقال: «ووجه الجمع بينهما أنّه لما كان الله اقدره على الرمي ، ومكّنه منه وسدّده له ، وأمره به، فأطاعه في فعله، نسب الرمي إلى الله، وإنْ كان مكتسبًا للنبي (ﷺ)، مُشاهدًا منه»⁽¹⁾.

ومن خصائص الخطاب القرآني فيما يتعلق بالفاعل أيضا هو أن تُبنى فيه الجمل . التي تنتقد فعلا منكرا . بناءً خاصا يُعدل فيه عن ذكر الفاعل صراحة إلى استعمال الاسم الموصول المبهم، ثم يُعاد ضمير الفاعل إلى هذا الموصول، كقوله تعالى: **﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾** (التوبة:٥٨)، وقوله تعالى: **﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ﴾** (التوبة:٦١)، وقوله تعالى : **﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ ﴾** (التوبة:٧٥)، ولا تخفى الدلالة النفسية والتربوية في هذا الأسلوب، إذ ليس القصد التشهير بالفاعل، فليس هذا شأن الخالق الستّار مع المخلوق، بل القصد نقد الفعل وإدانته، فضلا عن اقتضاء هذا الأسلوب استنبات بذرة الخير في نفس الفاعل ، للكفّ عن فعله ، إذ التصريح بالاسم يقتضي المعاندة والإصرار على الفعل . وبهذا الصدد نذكر أنّ اللغة ليست ناقلة للأفكار فحسب، بل هي تشارك وبشكل فاعل في تشكيل هذه الأفكار، ومن هنا تتجلى لنا القيمة التربوية لهذا الأسلوب القرآني في تربية المؤمنين، وتهذيب نفوسهم.

وسيتناول البحث الآن موضوع الفاعل في محاور عدة ، مقدِّمًا ما يتعلق بالمظاهر الإفرادية أولا، أي: ما يتعلق بالصيغة مفردة ، من خلال دراسة : الإفراد والتركيب ، والتعريف والتنكير ، ثم يردفها بالمظاهر التركيبية التي تنشأ عن التركيب في الجملة القرآنية ، من خلال دراسة: المطابقة، والتقديم والتأخير، وأخيرًا الاستغناء.

وقد جمع البحث المظاهر الإفرادية والتركيبية معا ؛ لأنّ مظاهر تشكيل الصيغة مفردةً تخضع لاعتبارات المعنى المقصود إيصاله للمتلقي، وللسياق، وهذان لا يتحققان إلاّ من خلال التركيب.

١) الإفراد والتركيب:

ينصُّ النحاة على أن الفاعل يكون اسما (أي: مفرداً)، وغير اسم ، ويعنون بغير الاسم : المصدر المؤول ⁽²⁾. وقد ورد الفاعل في كتاب الله تعالى بالصيغتين ، مع أرجحية ظاهرة لاستعمال الاسم المفرد. وما يعنينا بيانه هنا هو البحث في وجه العدول الأسلوبي عن المفرد إلى المصدر المؤول ، إذ فيه معنًى زائد على المصدر ⁽³⁾، ويحدد السهيلي (ت٥٨١هـ) فوائد التعبير بالمصدر المؤول **(أنْ والفعل)** بثلاث هي : أنه يجمع بين الإخبار عن الحدث والدلالة على

---

(١) الخصائص: ٢٠٤/١.

(٢) ينظر مثلاً: شرح التسهيل: ٣٨/٢.

(٣) ينظر نتائج الفكر: ١٣٠.

الزمان، وانه يدلُّ على إمكان الفعل من دون الدلالة على الوجوب أو الاستحالة، وان فيه تحصينا للمعنى من الإشكال، وتخليصا له من شوائب الاحتمال، فإذا قيل: **(أعجبني قدومك)** احتمل الكلام معاني منها : أن يكون القدوم نفسه هو المعجب ، أو حالة من حالاته ، فإذا قيل : **(أعجبني أن قدمت)** كانت **(أنْ)** على الفعل بمنزلة الطابع والعنوان من عوارض الاحتمالات المتصورة في الأذهان(١).

فإذا نظرنا في قوله تعالى: **﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾** (الحديد:١٦) نرى أنّ الذكر الحكيم آثر التعبير عن الفاعل بالمصدر المؤول **(أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ)** على المصدر الصريح ؛ وذلك للتباين بين الاستعمالين (٢)، فالمصدر المؤول من **(أنْ والفعل)** هو في أصله جملة فعلية نَزَعت عنها السابقةُ الموصولية استقلالها ، فتحولت إلى عنصر واحد(٣)، من حيث الوظيفة النحوية ؛ لأنّ أدوات الوصل هي وسائط اللغة في وضع الجمل في مواضع المفردات (٤)، ولكن يبقى الاختلاف الدلالي قائمًا بينهما ، وإلاّ لما عُدِل عن احدهما إلى الآخر . فالاسم يدل على الحقيقة من دون زمانها ، وأمّا الفعل فإنّه يدلُّ وراء أصل الثبوت على كون الثابت في تجدد ، وعليه فالفعل مقتصر على الزمانيات ، بخلاف الاسم الذي لا يقتضي ذلك(٥).

فاستعمال المصدر المؤول في الآية **(أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ)** يعني أنّ المطلوب تجدد الخشوع ، واستمرار هذا التجدد كلّما ذُكر الله، وكلّما تُليت آياتُهُ ، أو أُنزلت؛ لأنّ القرآن الكريم لمّا يزل يتنزل آنذاك، فالخطاب للمؤمنين(٦) بدليل نصّ الآية: **(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا)**، وكذلك حديث ابن مسعود (ﷺ) الذي رواه مسلم: « ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: **﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾** إلاّ أربع سنين)(٧). وهو أيضاً ما يدلُّ عليه سبب نزول الآية، إذ قيل: قيل : كَثُرَ المزاح في بعض شباب الصحابة فنزلت ، وقيل : كانوا مُجدبين بمكة فلمّا هاجروا أصابوا الرزق والنعمة، ففتروا عمّا كانوا عليه فنزلت(٨).

---

(١) المصدر نفسه: ١٢٦ . ١٢٧.

(٢) ينظر في أوجه الفرق بين الاثنين: معاني النحو: ١٢٦/٣.

(٣) ينظر: في بناء الجملة العربية: ٢٦٦.

(٤) ينظر: في النحو العربي نقد وتوجيه: ٣١٥.

(٥) ينظر: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز: ٧٥.

(٦) وأمّا ما نُقل عن الكلبي ومقاتل من أنَّ المقصود بالآية هم المنافقون ، فقد نعت الآلوسي هذا القول بأنّه : ((ممّا لا يكاد يصحُّ)). ينظر: روح المعاني: ٢٥٣/٢٧.

(٧) صحيح مسلم: ٢٣١٩/٤، رقم الحديث (٣٠٢٧).

(٨) ينظر: أسباب النزول، للسيوطي: ١٨٦ . ١٨٧.

ولا شك أنّ المؤمنين كانت قلوبهم قد خشعت لله ، فكان المطلوب تجدد هذا الخشوع واستمراره، فكان التعبير بالجملة الفعلية المصدّرة بأداة وصل انسب ، هذا فضلا عن دلالة التلطف في المعاتبة الذي يُشعر به استعمال المصدر المؤول الذي يدلُّ على امكان الفعل من دون التصريح مباشرة بدلالة الإلزام، التي قد يحتملها التعبير بالمصدر الصريح.

ومن بديع الا ستعمال القرآني مجيء الفاعل جملة للإفادة من معطياتها الدلالية ، وما تحققه من شحن عاطفي من خلال ما يتحقق فيها من إسناد داخلي، ومن خلال ما يلحقها من ضمائم تحقق معاني مقصودة، هذا فضلا عمّا تحمله من دلالات زمانية لا تتأتى عن طريق استعمال المفرد.

وإذا نظرنا في قوله تعالى : **﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾** (يوسف:٣٥) فسنرى أنّ الفعل (**بدا**) قد أُسند إلى جملة (**لَيَسْجُنُنَّهُ**) الفعلية، وهذا ظاهر الكلام الذي يشهد له الذوق كما يقول الرازي (١). إلا أنّ النحاة شغلوا أنفسهم في بحث جواز هذا التركيب(٢)، بدل أنْ يبحثوا عن أسراره، ومضمونه، وسبب إيثار الاستعمال القرآني له.

فالجملة الفعلية (**لَيَسْجُنُنَّهُ**) اكتنفها التوكيد سابقا ولاحقا ، من خلال اللام ونون التوكيد الثقيلة؛ لتكشف عن الإصرار الشديد والعزم المؤكد على تحقيق الفعل ، وهذا ما لا ينهض به بالمفرد، لذا نرى ابن عاشور يقدّر الآية بـ«**بدا لهم تأكيدُ أن يسجنوه** »(٣)، للحفاظ على ما تضمنته الجملة من معنى التوكيد، ومع هذا يبقى التقدير بعيدا عن تحقيق المعنى المقصود الذي دلّ عليه ظاهر الكلام.

كما ان الدلالة على الفاعل بصيغة الجمع في (**لَيَسْجُنُنَّهُ**) تدفع توهم المجاز في قوله تعالى (**ثُمَّ بَدَا لَهُمْ**)، لتؤكد أنّ السَجْنَ كان مرادا من الجميع ، لا من بعضهم كامرأة العزيز مثلاً . فضلاً عن أنّ دلالة التجدد والاستمرار والاستقبال المتحققة في الفعل المضارع (**لَيَسْجُنُنَّهُ**) لا ينهض بها التعبير بالمصدر.

وبهذا يظهر أنّ للفعل في القرآن الكريم قوة الاسم في تحمّل الفاعلية ، وليس بضائره تضمُّنُه معنى الزمان، بل ذلك ميزة له، ولا ننسى هنا تجويز النحاة وقوع الجملة الفعلية صفة ، أو

---

(١) التفسير الكبير: ١٣٣/١٨. والتجويز هو ظاهر كلام سيبويه ، ينظر: الكتاب: ١١٠/٣، وقد فهم ابن ولّاد (ت٣٣٢هـ) والنحاس (ت٣٣٨هـ) ذلك من كلام سيبويه . ينظر: الانتصار لسيبويه على المبرّد : ١٨٦ . ١٨٧، وإعراب القرآن: ٦٥٤/٣ . ٦٥٥.

(٢) منع جمهور البصريين ذلك، وقدّروا مصدرًا من الفعل المذكور على أنّه فاعل، في حين أجازه من الكوفيين هشام بن معاوية وثعلب وجماعة، أمّا الفرّاء فقد فصّل في المسألة فقال : إنْ كان الفعل قلبيًّا ، ووجد معلق عن العمل في الجملة جاز ، وإلاّ فلا. ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب : ٤٤٨/٢،و ٤٧٨/٢، وائتلاف النصرة في اختلاف نحاة الكوفة والبصرة: ٩٩.

(٣) التحرير والتنوير: ١٢ /٥٩.

حالا، أو خبراً(١) الذي هو احد طرفي الإسناد في الجملة الاسمية العربية . فضلاً عن أنّ هذا الاستعمال ليس غريبًا، بل هو قديم يعود لبدايات اللغة، وقد احتفظت به العربية (٢)، ووظّفه البيان القرآني في مواطن منه.

وثمّة مواضع أخرى لوقوع الجملة فاعلاً (٣)، كقوله تعالى : **﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾** (إبراهيم:٤٥)، وقوله تعالى : **﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾** (طه:١٢٨)، ولا تخفى على المتأمل دلالة الجملة الواقعة فاعلا في الآيتين.

٢) التعريف والتنكير:

يؤدي التعريف والتنكير دورا مهما في النظام النحوي للعربية ، فتعريف عنصر من عناصر التركيب أو تنكيره قد يؤدي إلى تغيير التركيب نظما ودلالة(٤)، إذ تتباين دلالة الوحدة اللغوية تعريفا وتنكيرا من خلال تخصيص الدلالة أو اعمامها، ممّا يؤثر في دلالة التركيب كله.

وإذا وقفنا عند تنكير الفاعل فسنجد أنّ كلمة النحاة قد اتفقت على أنه لا يشترط في الفاعل أن يكون معرفة ، فيصحّ مجيئه معرفة أو نكرة (٥)، حسب ما تقتضيه مقاصد الإخبار ودلالاته.

ومقاصد التنكير يحددها السياق أو المقام، فهو الذي يُكسب النكرة معناها البلاغي (٦)، كما أنّ النكرة بتفاعلها ضمن السياق فإنّها تُكسبه دلالات خاصة ما كان ليؤديها لو كانت المفردة معرَّفة. فإذا تأملنا قوله تعالى : **﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ۞ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾** (الشعراء: ٨٨ . ٨٩) فسنرى أنّ المقصود هو انتفاء النفع عن محاسن الدنيا ، وقد اقتُصر على ذكر المال والبنين؛ لأنّ الغالب في أحوال الناس أن يدفع الإنسان عن نفسه إمّا بفدية أو بنجدة، وقد اقتضى ذلك نفي النفع عن غيرهما بالأولوية، بحكم دلالة الاقتضاء المستندة إلى العُرف(٧).

ويلحظ أن تنكير كلمة **(مال)** أفاد التكثير والتعظيم معا، فالتكثير من حيث الكمُّ تحقيقا أو تقديرًا، وأمّا التعظيم فمن حيث النوعُ والنفاسةُ ، وتبع ذلك ما عُطف على الفاعل وشاركه في

---

(١) ينظر: نحو القرآن: ٣٠. وتجدر الإشارة إلى أنّ الاستعمال القرآني ذهب إلى ابعد من ذلك حين استعمل الجملة الفعلية مبتدأ، كما في قوله تعالى: **(وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً)** (الروم:٢٤) إذا ابتعدنا عن التمحل والتأويل.

(٢) ينظر: التطور النحوي للغة العربية: ١٩٢.

(٣) ينظر: التأويل النحوي في القرآن الكريم: ٨٩٧/٢ . ٨٩٩.

(٤) ينظر: التعريف والتنكير بين الدلالة والشكل: ٢١٥.

(٥) ظاهرة التنكير وأثرها في بناء الجملة العربية وتوجيهها : رسالة ماجستير قدّمها : خير الدين فتاح إلى كلية الآداب . جامعة الموصل، بإشراف الباحث، ٢٠٠١: ٤٢.

(٦) ينظر: من بلاغة القرآن: ١٢٨.

(٧) ينظر: التحرير والتنوير: ١٥٨/١٩.

وظيفته، وهو كلمة (**بنون**)، فهم ليسوا بمغنين شيئا ولو كثروا ، أو امتلكوا من مقتضيات القوة في الجسم والعقل ما امتلكوا . ولا شك أنّ التنكير قد أسهم من خلال السياق في خلق أو تشكيل هذه الصورة المرعبة في التيئيس من نفع عناصر القوة المادية الدنيوية، ومن ثمَّ حصر النفع بإخلاص الدين لله من خلال القلب السليم البعيد عن عقائد الشرك ، وفي هذا حثٌّ على الإخلاص وتثبيت للمخلصين. وبالمثل لو نظرنا في قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ** ﴾ (آل عمران:١٠٦) فسنرى أن تنكير كلمة (وجوه) في الموضعين قد أسهم في دلالة الترغيب والترهيب فضلاً عن دلالة التشويق للسياق بشدِّ المتلقي إلى استطلاع صفات كل صنف من الصنفين المذكورين.

وقد اسند الابيضاض والاسوداد إلى الوجوه مع أن الظاهر أنهما يكونان للجسد كله؛ لأن الوجه هو أول ما يلقاك من الشخص ، فهو اشرف الأعضاء(١)، فضلاً عن أنّ ما يظهر على الوجه يعكس صورة صاحبه من الداخل، وينمُّ عمّا يحتجنه من ألم وغُصّة، أو فرحٍ وسرور . وبهذا يتعاضد التنكير مع السياق في رسم جانب من صورة ذلك اليوم العظيم.

وقد يقترن الفاعل النكرة بحرف الجرِّ الزائد في سياق النفي ، وهذا الحرف لا يصل الفعل بالاسم، بل وظيفته إسباغ التوكيد على مضمون الجملة، فتكتسب من خلال النفي والتنكير العمومَ والاستغراقَ، فإذا وقفنا عند قوله تعالى : ﴿**أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ** ﴾ (الأعراف:٨٠) وقوله تعالى : ﴿**وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ** ﴾ (التوبة:١٢٧) نلحظ أن الفاعل (**احد**) قد سُبق بحرف الجر الزائد (من) في سياق النفي ، والنكرة الملازمة للنفي تدل على العموم نصًّا، وقد أفادت هنا استغراق النفي، وهو ابلغ من نفي الجنس ؛ لأنّ الأخير يحتمل نفي مفرده اللفظي أو جنسه المعنوي، وأمّا استغراق النفي فيكون لنفي الجنس بالكليّة فقط(٢).

وقد صوّر هذا الاستعمال المعنى المقصود في الآيتين أبدع تصوير ، فعادة قوم لوط لم تكن معروفة عند من سبقهم قطعاً. وبالمثل صوّر هذا الاستعمال في الآية الثانية حرص المنافقين الشديد على كتم أسرارهم وعدم البوح بها أمام غيرهم مطلقًا ، فإذا بهم يُفاجأون بنزول القرآن يفضح سرّهم ، فما كان منهم إلاّ تبادل نظرات التعجب والاستغراب (**هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ**)، فيطّلعَ محمدًا (ﷺ) على سرّكم ؟! ناسين أنّ الله سبحانه وتعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

حتى إذا انتقلنا إلى حقل التعريف (٣) فسنجد أنّ القرآن الكريم قد وظّف المعارف التي تشغل وظيفة الفاعلية مفيدًا بأقصى ما يكون من إمكانياتها التعبيرية لتحقيق التأثير في المتلقي ،

---

(١) ينظر: البحر المحيط: ٣/٢٥، وروح المعاني: ٤/٣٢٩.

(٢) ينظر: رصف المباني في شرح حروف المعاني،:٣٩٠.

(٣) لم يلتزم البحث ما تعورف عليه في كتب النحو من تقسيمات للمعارف وترتيبها؛ لأنّ الغرض هو الكشف

وهذا ما نلمسه . م ثلاً . في آيتين متجاورتين في سورة آل عمران ، إذ قال تعالى : **﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ۞ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾** (آل عمران: ١٤٤ . ١٤٥) إذ اختتمت الآية الأولى بقوله تعالى: (**وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ**) في حين ذُيلت الثانية بقوله تعالى: (**وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ**)، فاسند فعل الجزاء في الأولى إلى لفظ الجلالة ؛ فالسياق فيه دلالة على التفخيم ، من خلال الشحنة العاطفية المتحققة بالتصريح بلفظ الجلالة ، وفيه تعريض بمن ينقلب على عقبيه، أمّا الآية الثانية فسياقها يدل على التفخيم بعظم الجزاء من غير تعريض ؛ لأنّ «جملة (**وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ**) تذييل يعمُّ الشاكرين ممّن يريد ثواب الدنيا، ومن يريد ثواب الآخرة»(١)، فاسند الفعل إلى ضمير العظمة، ولم يذكر لفظ الجلالة.

وقد يُعبّر عن الذات المقدّسة بضمير المتكلم المفرد، من غير الإسناد إلى الاسم الصريح أو ضمير التعظيم ، وغالباً(٢) ما يكون هذا الاستعمال في مواطن المبالغة في العذاب عند مخاطبة الحالات الفردية الخاصة ، كقوله تعالى : **﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ﴾** (المدثر :١٧) و**﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾** (المدثر:٢٦)، في سياق تهديد الوليد بن المغيرة. وقوله تعالى: **﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾** (المائدة: ١١٥) في سياق مخاطبة الحواريين.

وشكّل الالتفات في استعمال ضمير الفاعل ملمحًا أسلوبيًا في البيان القرآني، كما في قوله تعالى: **﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۞ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴾** (عبس:٢.١) فاسند الفعلان **(عبس وتولى)** إلى ضمير الغائب بدل الإسناد إلى ضمير المخاطب؛ تعظيمًا لرسول الله (ﷺ) وإجلالاً له، من خلال الإيهام بأن مَنْ صدر عنه ذلك غيره(٣)، فضلا عن تحقق الدلالة النفسية من خلال تجنّب صيغة العتاب المباشر.

ويُلحظ في استعمال الأعلام أنّ القرآن الكريم كان مقتصدًا في ذكر أسماء الأعلام للأشخاص من غير الأنبياء (‡) فلم يصرّح بها إلاّ لضرورة، كما ورد في سياق اجتثاث عادة التبني وما يترتب عليها من أحكام غير مشروعة ، إذ قال تعالى : **﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً**

عن جانب من صور توظيفها دلاليًا.

(١) التحرير والتنوير: ٢٤١/٣.

(٢) إذ ورد في سياق الكلام على التوبة ، بقصد توكيدها ، إذ ورد في قوله تعالى : (**إلاّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ**) (البقرة:١٦٠)، وهي الآية الوحيدة التي اسند فيها فعل التوبة إلى ضمير المتكلم في كتاب الله تعالى.

(٣) ينظر: روح المعاني: ٣٣٩/٣٠.

زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ (الأحزاب :٣٧) وإنّما اعتمد اللقب حينًا كقوله تعالى : **﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ﴾** (الحاقة:٩)، أو الاسم المنكّر الموصوف حينًا آخر: **﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى ﴾** (القصص:٢٠) ، أو النكرة المقيدة بأكثر من صفة : **﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴾** (غافر:٢٨)، أو يستعمل التعريف بالاسم الموصول وصلته كقوله تعالى : **﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾** (النمل: ٤٠). وأمّا أسماء النساء فلم يصرّح القرآن الكريم بها لملحظ نفسي وتربوي، إذ يعلّمنا صون المرأة عن الانكشاف حتى ولو كان ذلك بالاسم فقط ، إلاّ مريم (عليها السلام)؛ وذلك لغرض يتعلق بالعقيدة ، وهو نفي الالوهية عن وليدها (عليه السلام)، فالتصريح باسم الأم هنا يؤكد الحقيقة البشرية لعيسى (عليه السلام)، إذ إنّ الاسم العلم هو «ما وضع لشيء، مع جميع مشخصاته »[1]، ولا ريب أن استحضار الحقيقة البشرية هو أول مشخصات الاسم العلم. ولكن مال الاستعمال القرآني إلى التعريف بالإضافة إلى اسم الزوج كقوله تعالى : **﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾** (يوسف: ٥١)، وقوله تعالى: **﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ ﴾** (القصص: ٩)، وقوله تعالى : **﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ ﴾** (آل عمران:٣٥)، أو التعريف بالاسم الموصول وصلته ، كقوله تعالى : **﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾** (يوسف:٢٣)، فالاسم الموصول موضوع في أصل اللغة على أن يتخصص بالصلة أو يُعرّف بها، فالمقام «الصالح للموصولية هو أن يصحَّ إحضار الشيء بواسطة جملة معلومة الانتساب إلى مشار إليه بحسب الذهن؛ لأنّ وضع الموصول على أن يطلقه المتكلم على ما يعتقد أن المخاطب يعرفه بكونه محكومًا عليه بحكم حاصل له »[2]. وفي الآية الكريمة حقق استعمال الاسم الموصول مع صلته مقصدًا تربويًا كبيرًا ، وذلك من خلال بيان قوة تمكن امرأة العزيز، وتوافر أسباب الإغراء، إلاّ أنّ سيدنا يوسف (عليه السلام) استعلى على ذلك، وتسامى عن الهبوط إلى ما يغضب الله، راسمًا بذلك طريقًا إلى قيام الساعة لكل من آثر رضا الله ثم رضا العقل على هوى النفس ودنس الشهوة . وبهذا حقق العدول عن الاسم العلم إلى الاسم الموصول مقصدًا عظيمًا فضلاً عن المقصد الأول في الاستعمال القرآني، وهو عدم التصريح بأسماء النساء إلاّ لضرورة عقيدية.

ويلحظ كذلك أنه في حالة تعدد الفاعل فإنّ القرآن الكريم يلتزم الترتيب في قوة مباشرة الفاعلين للفعل ، فيفصل بين الفاعل الأول وما عطف عليه بمتعلقات الفعل ، وهذا من خصوصيات العربية في أسلوب العطف، ومن خصوصيات الاستعمال القرآني في ذكر الفاعل «وذلك أنّك إذا أردت أن تدلَّ على التفاوت بين الفاعلين في صدور الفعل ، تجعل عطف احدهما

---

[1] (١) المطوّل شرح تلخيص المفتاح: ١٩٠.

[2] (٢) المصدر نفسه: ١٩٤.

بعد انتهاء ما يتعلق بالفاعل الأول»(١) من متعلقات الفعل، كقوله تعالى: **﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾** (البقرة:١٢٧)، وقوله تعالى: **﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾** (التوبة:٩٤).

وقد يعدل الاستعمال القرآني عن مقتضى الظاهر في إسناد الفعل إلى الضمير، وذلك إذا عُطِفَ فعل على فعل آخر، واتحد فاعلهما، فيعيد الفاعل اسمًا ظاهرًا مع الفعل الثاني، أي يضع الاسم الظاهر موضع الضمير، كقوله تعالى: **﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾** (الأحزاب:٢٢) ولم يقل: (وصدقا)؛ وذلك «لئلا يكون الضمير الواحد عن الله تعالى وغيره»(٢)، تنزيهًا لله تعالى، وهذا من دقائق التعبير القرآني في مسالة العقيدة.

وأمّا اسم الإشارة فكان أقلّ المعارف نصيبًا في شغل وظيفة الفاعلية في الاستعمال القرآني، من ذلك قوله تعالى: **﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾** (النساء:٦٩) فقد حقق اسم الإشارة الإيجاز من خلال استحضار الذوات المتقدمة المشار إليهم، فكان كالضمير في الاستغناء به عن إعادة المذكورين في الآية لحضورهم في ذهن المتلقي من خلال السياق. وقد عُدِلَ عن استعمال الضمير هنا لتباين درجات المذكورين من (**النبيين والصديقين والشهداء والصالحين**). واستعمل اسم الإشارة (**أولئك**) وهو للبعيد؛ وذلك لبيان علو مرتبة المشار إليهم، ورفعة شأنهم.

وقد تعاضد السياق. من خلال استعمال صيغة المدح (**حَسُنَ**) .، وكذلك توظيف التمييز. مع اسم الإشارة الدال على البُعد، في رسم الصورة المثلى للمذكورين، فهم أهلٌ لأن يدعو المسلم في كل ركعة من صلاته أنْ يجعله الله على طريقتهم اقتداءً واهتداءً، من خلال قوله تعالى: **﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾** (الفاتحة:٦.٧). وقد يُدَلُّ باسم الإشارة للقريب. الذي يشغل وظيفة الفاعلية. على التهوين، وهذا ما يُلحظ في قوله تعالى: **﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾** (الأنعام:٨٩)، وقوله تعالى: **﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾** (ص:١٥)، والإشارة في الآيتين هي لمشركي مكة؛ لأنه متى ما استعمل هذا الاسم في القرآن الكريم ولم يُذكر معه مُشار إليه مذكور، فالمقصود به مشركو أهل مكة، وهذا ما نبه عليه ابن عاشور(٣) (ت١٩٧٢م) رحمه الله.

وتلحظ دلالة التهوين أيضًا في قوله تعالى على لسان المنافقين: **﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً﴾** (التوبة:١٢٤).

---

(١) التحرير والتنوير: ٦٩٩/١.

(٢) أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة من غرائب آي التنزيل: ٤١٢.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٠٤/٦، ٢٣ /١٢٤.

وأمّا التعريف بالموصول وصلته فإنّه قائمٌ على التلازم الوثيق بينهما ، إذ تتكفل الصلة ببيان الموصول وتمييزه ، فحسُنَ لذلك وقوعه موقع الاسم الظاهر ، فالموصول موضوع على أن يتخصص بالصلة أو يُعرَّف بها ، وهذا ما سبقت الإشارة إليه آنفًا. ويمكن أن نلحظ ما سبق في قوله تعالى : **﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ﴾** (القصص:١٥) في سياق قصة موسى (عليه السلام). ولم تقتصر وظيفة الموصول على ما سبق ، بل كشفت عن سبب تعاطف سيدنا موسى (عليه السلام) مع الذي استغاثه، ونصرته له.

ويُسند الفعل إلى الموصول أيضًا إذا كانت الصلة سببًا لاستحقاق الحكم الذي يقرره الفعل كقوله تعالى: **﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ﴾** (طه: ٦١)، وقوله تعالى : **﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً ﴾** (طه:١١١)، وقوله تعالى : **﴿فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾** (الأحزاب:٣٢)، وقوله تعالى: **﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ﴾** (المائدة: ٧٣).

ومن بديع الاستعمال القرآني في إسناد الفعل إلى الاسم الموصول إعادة صيغة الفعل نفسها في صلة الموصول، بقصد المبالغة والتهويل في تصوير الفاعل، كقوله تعالى: **﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى﴾** (لنجم:٥٤)، وقوله تعالى: **﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾** (طه: ٧٨) وَوَجْهُ هذا الأسلوب أنه «ورد على سبيل التهويل وتفخيم الشأن ، [و][1] لولا ذلك لم يجزْ ؛ لأنّ الفاعل بمنزلة خبر المبتدأ، يتضمن زيادة على مدلول الفعل»[2].

أمّا المعرّف بالإضافة فقد شغل وظيفة الفاعلية كثيرًا في الاستعمال القرآني الذي أفاد من كون التركيب الإضافي هو من الطرائق المختصرة لاستحضار الاسم المضاف إلى ذهن المتلقي ، فضلاً عمّا تؤديه الإضافة من معانٍ كثيرة يشارك السياق في تجسيدها ، وعلاوة على ذلك فقد أختصَّ الأُسلوبُ القرآني التركيبَ الإضافي بمزايا مقصودة حقق من خلالها أهدافا تربوية وأخلاقية، إذ سبقت الإشارة إلى أنّ التركيب الإضافي في **(امرأة العزيز)** و**(امرأة نوح)** و**(امرأة لوط)** و**(امرأة عمران)** قد أغنى عن التصريح بأسماء النساء، بما يتفق ومنهج القرآن الكريم في هذه المسألة.

ويضفي الاستعمال القرآني شحنة عاطفية كبيرة على التركيب الإضافي من خلال الإضافة إلى اسم الجلالة ، كما في قوله تعالى : **﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً ﴾** (الأنعام:٤٧)، وقوله تعالى : **﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾** (النصر :١)، ولا تخفى دلالة تعظيم العذاب في الآية الأولى، وتفخيم النصر في الثانية ، من خلال الإضافة إلى لفظ الجلالة ، وفي

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) ماءات القرآن: ١٨٠.

هذا الصدد يقول الجاحظ: (ت٢٥٥هـ): «وكلُّ شيء أضافه الله إلى نفسه فقد عظّم شأنه، وشدّد أمره»(١).

وتجدر الإشارة إلى أنّ اللغوي شارل بالي (١٨٦٥ . ١٩٤٧م) أشار إلى طريقتين للكشف عن الشحن العاطفي والوجداني في التعبير، وذلك من خلال موازنته بأسلوب التعبير في لغة أخرى، أو موازنته مع نمط تعبيري آخر في اللغة نفسها (٢). وعليه فيمكننا أن نستشف الشحنة الوجدانية في هذا التركيب، إذا وازناه مع تعبير مفترض في غير القرآن، وهو: (**إنْ أتاكم العذابُ بغتة أو جهرة**) أو: (**إذا جاء النصر والفتح**). ولا شك أن الموازنة بين التعبيرين توضح الفارق الكبير بينهما، وما ذاك إلاّ بسبب إضافة الفاعل إلى لفظ الجلالة.

وقد يعتمد الأسلوب القرآني التكثيف والإيجاز من خلال التركيب الإضافي، ثم يعمد إلى توظيفه في تشكيل الصورة القرآنية، وهذا ما يظهر مثلاً في قوله تعالى: ﴿**وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً**﴾ (الأعراف:٤٤)، وقوله تعالى: ﴿**وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ**﴾ (الأعراف:٤٨) فلفظة (**أصحاب**) مضافة إلى (**الجنة**) أو إلى (**الأعراف**) قد كثفت صورة الفاعلين، وأوجزت التعريف بهم، فضلاً عن إسهامها الفعلي في تشكيل صورة الحدث من خلال شغلها لوظيفة الفاعلية.

وقبل ختام الكلام على تعريف الفاعل وتنكيره أُشير إلى ملمح أُسلوبي قرآني تجلى في التجانس الصوتي في الاشتقاق من أصل واحد بين فاعل صيغة الذم المحلّى بـ (**ال**) الجنسية والمخصوص بالذم، وذلك في آيتين متجاورتين في سورة (**هود**) إذ قال تعالى عن فرعون: ﴿**يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ۞ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ**﴾ (هود:٩٨ . ٩٩) فـ(**الورد**) فاعل لـ(**بئس**) والمخصوص بالذم (**المورود**) وهي النار (٣). وجُوّز أن يكون (**المورود**) صفة لـ(**الورد**)، والمخصوص بالذم محذوف، وفيه بُعْد؛ لأنّ في وصف فاعل (**نعم وبئس**) نظرًا عند جمهور النحاة(٤).

إنّ التجانس الصوتي المتحقق بين المصدر (**الورد**) واسم المفعول (**المورود**)، و(**الرفد**) و(**المرفود**) يدلُّ على جانب من مزاوجة الاستعمال القرآني بين المعنى وجرس الألفاظ في تحقيق المعنى المقصود. وتجلى ذلك في هذا السياق بتكريس معنى التوكيد المتحقق في الاستعارة التهكمية من خلال السياق، والمتمثل بإيقاع الفعل الماضي موقع المضارع الدال على الاستقبال

---

(١) الحيوان: ٩٦/٥.

(٢) ينظر: الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها: ١١.

(٣) ينظر: إعراب القرآن: ١٠٩/٢، والبحر المحيط: ٢٥٩/٥.

(٤) ينظر: البحر المحيط:٢٥٩/٥، والدّر المصون في علوم الكتاب المكنون: ١٢٨/٤.

في قوله تعالى: (**فأوردهم**)، فضلاً عن دلالة أسلوب الذم الذي يتضمن توكيدًا ضمنيًا من خلال استعمال الفعل الجامد (**بئس**) وتحلية الفاعل بـ(**أل**) الجنسية.

وبالمثل يمكن ملاحظة المزاوجة بين المعنى وجرس اللفظ المتأتي من الاشتقاق من أصل واحد، في عطف اسم المفعول على اسم الفاعل الذي يشغل وظيفة الفاعلية، وذلك في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ**﴾ (الحج:٧٣).

٣) المطابقة:

هي مطابقة الفعل لفاعله من حيث الدلالة على الجنس أو العدد، وهي ظاهرة تركيبية على مستوى الجملة، وسيتناول البحث شقّي المسألة بإيجاز:

أ) **المطابقة في الجنس** : يرى علماء العربية أنّ (الأصل كان أنْ يُوضع لكلّ مؤنث لفظ غير لفظ المذكر... لكنّهم خافوا أن تكثر عليهم الألفاظ، ويطول عليهم الأمر، فاختصروا ذلك بأن أتوا بعلامة فرّقوا بها بين المذكر والمؤنث »[١]، ويبدو أنّ العربية اكتفت في أول أمرها بتأنيث الفاعل عن إلحاق علامة تأنيث بالفعل ، بدليل وجود بقايا لهذا الاستعمال في مرحلة التقعيد ، إذ قال سيبويه (ت١٨٠هـ): «وقال بعض العرب : **قال فلانة** »[٢]، وقال أيضًا : «قالوا : **ذهب المرأةُ** »[٣]. ولا وجه لإنكار ذلك؛ لأن من حفظ حجة على من لم يحفظ.

ومن ثمَّ أُلحقت علامة التأنيث بالفعل إذا كان الفاعل حقيقي التأنيث ؛ «لأن الفعل لم يكن في القياس تأنيثه... وإنّما دخل علم التأنيث في نحو : قامت هند، وانطلقت جُمْل، لتأنيث فاعله »[٤]. والظاهر أنّ الفعل بقي بلا علامة مع المؤنث المجازي ، ثم أُلحقت به علامة التأنيث للاستيثاق، إلا أنّ هذا الاستعمال لم يبلغ الاستعمال الأول. ولعل في هذا إيضاحًا لتساؤل الدكتور إسماعيل عمايرة حين قال : «ولستُ أدري أيُعبّر هذا عن مرحلة كان المؤنث فيها لا يكتسب قوة التأنيث إلاّ إذا كان مؤنثًا حقيقيًا ، وتكون هذه الحالات القليلة [يعني بقاء الفعل من دون علامة مع المؤنث المجازي] أثرًا من آثار تلك المرحلة »[٥]. والجواب . والله اعلم . نعم، فتلك مرحلة من مراحل التطور اللغوي ، بدليل احتفاظ الاستعمال القرآني ، بالصورتين معًا، وكذلك فإنّ العربية

---

(١) شرح المقرّب المسمى: التعليقة: ١١٠٧/٢.

(٢) الكتاب: ٣٨/٢.

(٣) المصدر نفسه: ١٧٨/٢.

(٤) الخصائص: ٢٤٤/٣.

(٥) دراسات لغوية مقارنة: ٨٣.

المعاصرة . في صورة من صور تطورها . التزمت في الأعمّ الأغلب إلحاق علامة التأنيث بالفعل مع الفاعل المجازي التأنيث طرداً للباب وتيسيراً على الناطقين . وإذا نظرنا في الاستعمال القرآني فسنجد أنّ الفعل يؤنث دائماً مع الفاعل المفرد الحقيقي ا لتأنيث ، كقوله تعالى : **﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾** (آل عمران:٣٥).

أمّا الفاعل المفرد المجازي التأنيث فقد ورد الفعل معه مُعْلَمًا في الغالب ، سواء باشر الفعلُ فاعلَه كقوله تعالى: **﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾** (الزلزلة:١)، أم لم يباشره كقوله تعالى: **﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾** (يونس:٥٧). وورد كذلك غير مُعْلَم كقوله تعالى : **﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى﴾** (البقرة:٢٧٥). ويرى النحاة أنّه لما كان التأنيث في مثل هذا الاستعمال غير حقيقي فإنّه قد ضَعُفَ ، ورُجِعَ فيه إلى الأصل الذي هو التذكير (١). وقد نعت سيبويه هذا الاستعمال بالكثرة(٢)، ونعته المبرِّد (ت٢٨٥هـ) بالجودة؛ «لأنّه تأنيث لفظ لا حقيقة تحته»(٣).

ونشير هنا إلى دور السياق في إلحاق الفعل علامة التأنيث أو تجرده منها فإذا نظرنا في قوله تعالى : **﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ۞ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾** (هود:٦٦.٦٧) وقوله تعالى في السورة نفسها : **﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾** (هود:٩٤) فسنجد أنّ الفعل قد أُنّث في قصة شعيب (عليه السلام)،ولم يؤنث في قصة صالح(عليه السلام)؛ وذلك لأنّ «الصيحة في قصة صالح في معنى العذاب والخزي، إذ كانت منتظمة بقوله سبحانه وتعالى : **﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾** فصارت الصيحة عبارة عن ذلك الخزي وعن العذاب المذكور في الآية فقوي التذكير، بخلاف الآية الأخرى،والله اعلم»(٤).

أمّا صيغ الجموع فإنّ تأنيثها ليس حقيقيًا ، فلذلك يُتوسع فيها (٥)، فإن كان الفاعل جمع مذكر سالمًا فإنّ الفعل معه يلتزم التذكير ، كقوله تعالى : **﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾** (التوبة:٨١)، في حين ورد التذكير والتأنيث مع الملحق بهذا الجمع إذ قال تعالى : **﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾** (الرعد:١٩)، وورد التأنيث في قوله تعالى حكاية عن فرعون : **﴿قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرائِيلَ﴾** (يونس:٩٠). وإذا كان الفاعل جمع مؤنث سالمًا فإنّ

---

(١) ينظر: شرح المفصل: ٥/٩٤.

(٢) الكتاب: ٢/٣٨، ٣٩.

(٣) المقتضب: ٢/١٤٦.

(٤) نتائج الفكر: ١٧٠.

(٥) ينظر: شرح المفصل: ٥/١٠٣.

«الوجه تأنيث الفعل »[1]، ويجوز التذكير وهو كثير ، سواء أكان التأنيث حقيقيًا أم مجازي اً، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ**﴾ (الممتحنة: ١٢)، ويلحظ أنّ الفاعل قد حُذف هنا وبقيت صفته ،والتقدير :النساء المؤمنات،والنساء اسم جمع لا واحد له من لفظه ،ومن التأنيث المجازي قوله تعالى: ﴿**لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي**﴾ (هود: ١٠).

أمّا جمع التكسير فإنّ العربية جوّزت فيه الوجهين [2]، مع أرجحية التأنيث في الاستعمال القرآني، فمن التذكير قوله تعالى : ﴿**مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ**﴾ (التوبة:١١٧)، ومن التأنيث قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ**﴾ (الأعراف:٤٣).

وأمّا اسم الجمع وما شابهه فقد عومل في الاستعمال القرآني معاملة جمع التكسير ، إذ قال تعالى : ﴿**كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ**﴾ (الشعراء:١٠٥)، وقال تعالى: ﴿**قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا**﴾ (الحجرات: ١٤)، وبالمقابل نقرأ قوله تعالى: ﴿**لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ**﴾ (الحجرات:١١)، وقوله تعالى: ﴿**وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ**﴾ (يوسف: ٣٠).

والأمر نفسه نلحظه مع اسم الجنس الجمعي، إذ قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ**﴾ (سبأ:١٤) بتأنيث الفعل ، ومما جاء بتذكيره قوله تعالى : ﴿**لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ**﴾ (الرحمن:٥٦).

ب) المطابقة في العدد: الأصل المسموع والمقيس في العربية أن يجرَّد الفعل من علامة التثنية أو الجمع إذا أُسند إلى الفاعل المثنى أو المجموع ، ولكن سُمع عن قبيلة طيئ والقبائل اليمانية التي تمت لها بصلة كقبيلة (**بلحارث بن كعب**) و(**أزد شنوءة**) إلحاق العلامات بالفعل، وهي ليست بضمائر، «إذ لم يتقدم مذكور تعود إليه »[3]، وكأنّهم . كما يقول سيبويه . «أرادوا أن يجعلوا للجمع علامة، كما جعلوا للمؤنث»[4]. وعليه فلا نحسب أنّ قول الدكتور علي أبو المكارم بصائب حين رأى أنّ «موقف النحويين سواء منهم من التزم بظاهر هذه النصوص [يقصد النصوص الشعرية لهذه اللغة] أو قال بتأويلها يتسم بالخطأ الم نهجي، إذ يَفْترض في اللغة ما ليس فيها ، ويقنن لظواهر لا تنتمي نصوصها إليها »[5].والحق أنّ هذه الظاهرة هي الأصل في اللغات العاربة (**السامية**)[6]، إذ وردت في اللغات العبرية والآرامية والحبشية[7]، وكذلك هي الأصل في اللغة

---

[1] (١) المصدر نفسه: ١٠٣/٥.

[2] (٢) الكتاب: ٣٩/٢ . ٤٠.

[3] (٣) نتائج الفكر: ١٦٦.

[4] (٤) الكتاب: ٤٠/٢.

[5] (٥) الجملة الفعلية: ١١٥.

[6] (٦) ينظر : بحوث ومقالات في اللغة : ٦٩، ٢٥١، وظاهرة التأنيث بين اللغة العربية وال لغات السامية دراسة لغوية تأصيلية: ٦٣.

[7] (٧) ينظر: بحوث ومقالات في اللغة: ٦٩.

الأكدية، كما يدلنا على ذلك ثبت التصريفات (**Paradigmen**) لهذه اللغة(١)، إلا أنّ هذا الأصل آل إلى الاندثار بفعل التطور اللغوي ، مع بقاء جانب منه في استعمال بعض القبائل العربية ، فليس من الخلط المنهجي في شيء قبول هذه اللغة والإشارة إليها، إلى جانب الاستعمال الغالب في اللغة، طالما أنّها وردت في القرآن الكريم والحديث الشريف وكثير من شواهد العربية ، وطالما أنّ الكثير من اللهجات العربية الدارجة تحاكي هذه اللغة في استعمالها.

ولا مراء أنّ التفسير اللغوي المقارن هو أقرب من التخمين الذي افترضه ابن مالك (ت٦٧٢هـ) من أنّ سبب هذا الاستعمال أنّ الفاعل قد يكون أحيانًا اسمًا مبهمًا مثل (**مَنْ**) فألحَقَ بعض العرب العلامة بالفعل لرفع اللبس، ثم التزموا ذلك طردًا للباب(٢).

وقد وجدت هذه الظاهرة اللغوية مكانًا لها في الاستعمال القرآني، إذ وردت في قوله تعالى : **﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾** (المائدة:٧١)، وقوله تعالى : **﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾** (الأنبياء:٣) وحُمِل عليها في أحد التوجيهات (٣) قوله تعالى : **﴿لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً﴾** (مريم:٨٧). ووظيفة هذه العلامات أنّها علامة للجمع ، استُعملت «حرصًا على البيان وتوكيدًا للمعنى»(٤) من جهة تعاضد العلامة مع صيغة الاسم الصريح في تحديد الفاعل ، فضلاً عمّا يُضفيه الاسم الظاهر من دلالات على التركيب ، ففي قوله تعالى : **﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾** (الأنبياء:٣) أفاد الاسم الموصول وصلته زيادة تقرير المقصود من النجوى، فضلاً عن الإيماء إلى سبب تناجيهم وهو الظلم(٥).

٤) التقديم والتأخير:

إنّ استلهام التراث النحوي يرشدنا إلى أنّ بناء الجملة هو رصف الوحدات اللغوية التي تصف ما في ذهن المتكلم ، بطريقة مخصوصة ، ضمن ضوابط الإسناد والإفادة، وعلى وفق أنماط تركيب الجملة في العربية؛ لذلك فإنّ «بناء الجملة ليس غاية في ذاته ، وإنّما وسيلة لتأدية معنًى محدد داخل الموقف اللغوي، ومن ثمَّ كانت العلاقة بين مبنى الجملة ومعناها عنصرًا لا بدّ من رعايته في التصنيف النحوي»(٦)، وانطلاقًا من هذا نرى أنّ الجملة الفعلية هي ما كان المسند

---

(١) Von Soden , W. , GAG , Roma , 1969 , Para , 11.

(٢) ينظر: شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح: ٢٤٧.

(٣) ينظر: الكشاف: ٥٢٤/٢ . ٥٢٥، والدّر المصون: ٥٢٧/٤.

(٤) نتائج الفكر: ١٦٦.

(٥) ينظر: التحرير والتنوير: ١١/١٧.

(٦) الجملة الفعلية: ١٣٧.

المسند فيها فعلاً ، سواء أتقدم المسند أم تأخر (١)، وهاتان الصورتان شائعتان في الاستعمال القرآني والعربي، والمسند إليه في الصورتين هو الفاعل الحقيقي، ولكن ثمّة خلاف في تسميته ، إذ يرى الجمهور أنّه «إنْ قُدِّم الاسم على الفعل أو ما ضُمِّن معناه صار مرفوعًا بالابتداء ... وزعم بعض الكوفيين أن تأخر المسند لا يخلُّ برفعه المسند إليه»(٢)، وبناءً على هذا أعرب الجمهور الاسم المتقدم مبتدأ ، وأعربه بعض الكوفيين فاعلاً ، مع اتفاقهم على أنّه هو الفاعل الحقيقي للفعل . فالخلاف لفظي ، والاسم المتقدم هو «فاعل مبتدأ »(٣) إنْ صحّ تعبير الدكتور م هدي المخزومي.

وعليه فإنّ ما ذهب إليه الدكتور مازن الوعر من أ ن تقديم الفاعل على فعله لا يجوز ، فهذه الحركة التحويلية غير مسموح بها في العربية ؛ لأنّ الفعل وفاعله وحدة لسانية لا يمكن تجزئتها (٤)، كلام فيه نظر ؛ لأنّه إذا كان الاهتمام أو التركيز منصبًا على الفعل جيء بالجملة على أصل البناء، كقوله تعالى : **﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ ﴾** (الأعراف: ١٤٨)، وأمّا إذا كان التركيز منصبًا على الفاعل ، فإنّه يُقدَّم على الفعل ، فيفيد التقديم التحقيق لمقصد الفاعلية ، فيشع التركيب حينئذٍ بمزيد من المعاني الإيحائية، وهذا ما يُلحظ في قوله تعالى : **﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾**(المائدة:٦٧)،وقوله تعالى : **﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾** (الزمر :٢٣)، ويمكن ملاحظة الفرق التعبيري بين الاستعمالين في آية واحدة جمعت بينهما ، وذلك في قوله تعالى : **﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً﴾** (النساء:٢٧)، وفضلاً عن ذلك فإنّ للسياق دوره في تقديم الفاعل ، فلإذا نظرنا في قوله تعالى : **﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَ كَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾** (الرحمن :٣٧)، وقوله تعالى : **﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾** (الانشقاق:١) فسنجد أنّ لفظ (**السماء**) ورد فاعلاً مجازياً في الآيتين، ولكن التركيز في الأولى كان على فعل الانشقاق، وأمّا الثنية فالتركيز فيها على الفاعل ؛ لمجيئها في سياق الكلام على أحوال الساعة والبعث ، فضلاً عن وقوعها جملة ابتدائية ،وللجمل الابتدائية صياغتها الخاصة المؤثرة،فهي المفتاح لفهم السورة بأسرها.

وقد يعدل الأسلوب القرآني عن النسق المألوف في بناء الجملة الفعلية ، وذلك بتقديم المفعول على فاعله ، ولهذا التقديم حكمان ، أحد هما: الوجوب ، وذلك إذا كان الفاعل محصورًا كقوله تعالى: **﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ﴾** (آل عمران:٧)، وقوله تعالى: **﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِ هِ الْعُلَمَاءُ ﴾** (فاطر :٢٨)، أو: إذا اتصل ضمير المفعول بالفاعل ، كقوله تعالى : **﴿هَذَا يَوْمُ يَنْ فَعُ**

---

(١) في النحو العربي نقد وتوجيه: ٤٧.

(٢) شرح التسهيل: ٢/٤٠.

(٣) في النحو العربي نقد وتوجيه: ٢٦٨.

(٤) ينظر: نحو نظرية لسانية عربية حديثة لتحليل التراكيب الأساسية في اللغة العربية: ١٠٨.

الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ (المائدة:١١٩)، أو: إذا كان المفعول ضميرًا متصلاً ، والفاعل اسماً ظاهراً كقوله تعالى: **﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾** (طه: ١٢٦).

والحكم الآخر هو الجواز ، وذلك حينما يكون التركيز على المفعول به ؛ لأنّه المحور الرئيس في الحدث الذي تصفه الجملة ، كقوله تعالى : **﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ ﴾** (النساء:٨)، وهذا لا يمنع من القول إنّ من أسباب التقديم أيضًا أنّ الفاعل قد شغل حيّزًا من الكلام بتوابعه ، «ممّا قد يغمر المفعول به ، ولا نكاد نتبينه حين يتأخر»(١).

وقد يأخذ حكم الجواز صفة الاطّراد في الاستعمال القرآني ، وهذا ما نجده في تعبيرات خاصة كالتي تتعلق بالموت، إذ يكون تركيب الجملة كالآتي:

الفعل + المفعول به مضافًا إلى الضمير + الفاعل

(حضر، جاء، أتى) (أحدكم، أحدهم) (الموت)

وورد هذا الاستعمال في عدّة آيات (٢). وأذكرُ أنّ هذا التركيب استوقفني في مرحلة النشأة، حتى قرأتُ تعليل الدكتور إبراهيم انيس الذي احتمل أن يكون السبب هو النفور «من التعجيل بذكر كلمة كريهة على النفس البشرية »(٣)، ثم قرأت بعد حين لأحد المعاصرين تعليلاً لهذا الاستعمال يرى فيه أنّ التعبير القرآني قد راعى رغبة النفس البشرية في تأخر الموت ، فأخره في الجملة القرآنية ؛ لأنّه مؤخر في شعور الإنسان وتفكيره(٤). وهو لم يخرج كثيرًا عن تعليل الدكتور إبراهيم أنيس . والذي يبدو أنّ القرآن الكريم لم يقصد تحقيق الرغبة البشرية في تأخر الموت ، بل هو يسعى إلى أنْ يستحضر أتباعه صورة الموت والقيامة والبعث في أذهانهم ؛ ليستقيم سلوكهم ، ويزداد خضوعهم لله ، والأدلة القرآنية على ذلك أكثر من أن يُشار إليها . ويبدو عند التأمل أنّ المقصود الأول من هذا التركيب . والله اعلم . هو التأثير في المتلقي ، فإذا سمع الفعل **(جاء**، أو: **حضر** ، أو: **أتى)** انشدَّ لمعرفة الفاعل ، ولكن يكسر توقعه باصطدامه بالمفعول به الذي هو من ألفاظ العموم(٥)، فيستشعر نفسه مقصوداً بهذا الخطاب ، ومعنياً به فيزداد انتباهه، ثم يُفجأ بالفاعل الذي هو **(الموت)**، فيكون ذلك ادعى إلى تركيز الذهن وتكثيف الانتباه لما سيأتي . وهذا الأسلوب القرآني يأتي في المواطن التي يحرص القرآن على تثبيتها في وعي

---

(١) من أسرار اللغة: ٢٠٧.

(٢) تنظر الآيات : (البقرة :١٣٣، ١٨٠)، و(النساء :١٨)، و(المائدة :١٠٦)، و(الأنعام : ٦١)، و(المؤمنون : ٩٩)، و(المنافقون: ١٠).

(٣) من أسرار اللغة: ٢٠٨.

(٤) ينظر: لطائف قرآنية: ١١٥.

(٥) باستثناء آية البقرة: ١٣٣، إذ ورد المفعول فيها اسماً.

المتلقي، وهي مواطن الحديث عن العقيدة أو الأحكام، ولنقرأ معًا قوله تعالى : **﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾** (المنافقون:١٠).

٥) الاستغناء:

إنّ منطلق النحاة في القول بالتلازم بين الفعل وفاعله هو منطلق عقيدي في أساسه، يعززه فكر منطقي لا يرى حدثًا بلا مُحدِث، فشاعت في كتب النحو عبارات تدل على هذا التلازم الوثيق، إذ يقول سيبويه : «لا يخلو الفعل من مضمر أو مظهر مرفوع من الأسماء»(١)، ويقول ابن يعيش (ت٦٤٣هـ): «وأمّا حذف الفاعل البتة، وإخلاء الفعل عنه، فغير معروف في شيء من كلامهم»(٢).

وقد أبدع القرآن الكريم في أُسلوبه المعجز صوراً رائعة في توظيف الفاعل ، وقد سبق بيان جانب من دلالات الإظهار والإضمار عند الكلام على المعارف ، وكلامنا هنا على الاستغناء عن ذكر الفاعل صراحة، وذلك حين يكون الاعتناء والاهتمام منصبًا على الحدث، فلا يكاد المتلقي يلتفت إلى الفاعل بوصفه النحوي، ولكن هذا لا يعني عدمه، بل هو مفهوم من خلال سياق الكلام والقرائن التي تحفُّ به، ولذا يقول ابن مالك : «وإذا توهم حذف فاعل فعل موجود، فلا سبيل إلى الحكم بحذفه، بل يقدّر إسناده إلى مدلول عليه من اللفظ والمعنى »(٣)، ويقدّر الفاعل المستغنى عنه مصدرًا منويًا، إمّا بدلالة فعل في سياق الكلام كقوله تعالى : **﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاّ طُغْيَاناً كَبِيراً﴾** (الإسراء:٦٠)، إذ التقدير: فما يزيدهم التخويف إلاّ طغياناً كبيراً. وإمّا أن يقدَّر الفاعل من مصدر الفعل العامل المستغنى عن فاعله، ولم يُجوّز النحاة مثل هذا الإسناد إلاّ مع الأفعال: ظهر، وبان، وتبيّن، وبدا(٤).... كقوله تعالى: **﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ﴾** (يوسف: ٣٥)، وقد سبق بيان ما ترجح لدينا من أنّ الفاعل في الآية هو الجملة، لا المصدر المقدّر.

وقد يُستغنى عن الفاعل وتكون القرينة اللفظية مغنية عن التقدير مطلقًا ، فلا يُحتاج إلى تقدير مصدر أو غير مصدر ، وهذا ما يظهر جليًا في قوله تعالى : **﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** (البقرة: ٢٥٩)، وقوله تعالى: **﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ**

---

(١) الكتاب: ١/٨٠.

(٢) شرح المفصل: ١/٧٧.

(٣) شرح التسهيل: ٢/٥٤.

(٤) المصدر نفسه: ٢/٥٤.

بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ (النور: ٤٠)، فالفاعل للفعلين (**تبيّن، وأخرج**) مدلول عليه من السياق اللفظي، ومن التعسف بمكان أن يُقَدَّر.

وقد يُستغنى عن الفاعل لشدّة ظهوره، فتكون القرينة العقلية دالة عليه من غير لَبْسٍ، كقوله تعالى: **﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً ۞ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ۞ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ۞ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴾** (القيامة: ٣٦ . ٣٩)، وقوله تعالى: **﴿كَلاّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ۞ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ۞ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴾** (القيامة: ٢٦.٢٨)، وقوله تعالى: **﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾** (الواقعة: ٨٣)، فالفاعل للأفعال المؤشرة مدلول عليه عقلاً، وقد استُغني عنه لشدة ظهوره.

ومن بديع الاستعمال القرآني أن يُستغنى عن الفاعل وتحلَّ صفته محله (١)، من غير أن يشعر المتلقي بالحذف، وكأنّ الفاعل قد أصبح نسياً منسيا، فترث الصفة أحكام الفاعل جميعها، وهذا ما نجده في الاستغناء عن لفظة العموم (نفس) في قوله تعالى: **﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ ﴾** (فاطر: ١٨) إذ التقدير: نفسٌ وازرة، ونفس مثقلة(٢).

وفي ختام البحث نقول: رحم الله السمين الحلبي (ت٧٥٦هـ) إذ قال: إنَّ من عرف كون هذا فاعلاً أو مفعولاً أو مبتدأً مثلاً، ولم يعرف كيفية تصريفه ولا اشتقاقه ولا كيف موقعه من النظم، لم يحل بطائل(٣). والحمد لله حتى يرضى، وبعد أن يرضى.

---

(١) لم نُعبّر عن المسألة (بحذف الفاعل)؛ لأنّ الفاعل . حسب رأي الجمهور . لا يُحذف.

(٢) ينظر: إعراب القران، للنحاس: ٦٩٣/٢.

(٣) الدر المصون: ٤٥/١ . ٤٦.

المصادر والمراجع:

أولاً : الكتب المطبوعة:

١) ائتلاف النصرة في اختلاف نحاة الكوفة والبصرة ، عبد اللطيف بن أبي بكر الزبيدي (ت٨٠٢هـ)، تحقيق: د. طارق الجنابي، ط١، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٧.

٢) أسباب النزول، جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق: محمد محمد تامر، ط١، دار ابن الهيثم، القاهرة، د.ت.

٣) الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها، د. موسى ربابعة، ط١، دار الكندي، الأردن، ٢٠٠٣.

٤) إعراب القرآن، أبو جعفر النحاس (ت٣٣٨هـ)، تحقيق: زهير غازي زاهد ، مطبعة العاني ، بغداد، ١٩٧٩.

٥) الانتصار لسيبويه على المبرّد ، احمد بن محمد بن ولاد التميمي (ت٣٣٢هـ)، تحقيق : د.زهير عبد المحسن سلطان، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦.

٦) أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة من غرائب آي التنزيل ، محمد بن أبي بكر الرازي (ت بعد ٦٩١هـ)، تحقيق : د. محمد رضوان الداية ، ط٢، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، ١٩٩٥.

٧) البحر المحيط ، أبو حيان الأندلسي (ت٧٤٥هـ)، تحقيق : عادل عبد الموجود ، وعلي معوض، بمشاركة: د. زكريا النوتي، و د. احمد كمال، ط٢، دار الكتب العلمية ، بيروت، ٢٠٠٧.

٨) بحوث ومقالات في اللغة، د. رمضان عبد التواب، ط٢، مطبعة المدني، القاهرة ، ١٩٨٨.

٩) التأويل النحوي في القرآن الكريم ، د. عبد الفتاح الحموز ، ط١، مكتبة الرشد ، الرياض ، ١٩٨٤.

١٠) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ط١، مؤسسة التاريخ، بيروت، ٢٠٠٠.

١١) التطور النحوي للغة العربية ، برجستراسر ، تصحيح وتعليق : د. رمضان عبد التواب ، مطبعة المجد، القاهرة، ١٩٨٢.

١٢) التعريف والتنكير بين الدلالة والشكل ، د.محمد نحلة ، مكتبة زهراء الشرق ، مصر ، ١٩٩٩.

١٣) التفسير الكبير، فخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ)، ط٢، دار الكتب العلمية، طهران، د.ت.

١٤) الجملة الفعلية، د. علي أبو المكارم، ط١، مؤسسة المختار، القاهرة، ٢٠٠٧.

١٥) الحيوان، الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٦.

١٦) الخصائص : ابن جني (ت٣٩٢هـ)، تحقيق : محمد علي النجار ، ط٢، دار الهدى ، بيروت، د.ت.

١٧) دراسات لغوية مقارنة ، د.إسماعيل عمايرة ، ط١، دار وائل للنشر والتوزيع ، عمان ، ٢٠٠٣.

١٨) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ، السمين الحلبي (ت٧٥٦هـ)، تحقيق : علي معوض ، وعادل عبد الموجود ، ود. جاد مخلوف ، ود. زكريا النوتي ، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣.

١٩) رصف المباني في شرح حروف المعاني ، احمد عبد النور المالقي (ت٧٠٢هـ)، تحقيق : د. احمد محمد الخرّاط، ط٣، دار القلم، دمشق، ٢٠٠٢.

٢٠) روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، شهاب الدين الالوسي (ت١٢٧٠هـ)، تحقيق : محمد احمد الامد، وعمر السلامي، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، ١٩٩٩.

٢١) شرح التسهيل ، ابن مالك (ت٦٧٢هـ)، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، وطارق فتحي السيد، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١.

٢٢) شرح المفصل، ابن يعيش (ت٦٤٣هـ)، عالم الكتب، بيروت، د.ت.

٢٣) شرح المقرّب (المسمى التعليقة)، بهاء الدين ابن النحاس (ت٦٩٨هـ)، تحقيق : د.خيري عبد الراضي، ط١، دار الزمان، المدينة المنورة، ٢٠٠٥.

٢٤) شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح، ابن مالك (ت٦٧٢هـ)، تحقيق : د.طه محسن، دار آفاق عربية، بغداد، ١٩٨٥.

٢٥) صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج (ت٢٦١هـ)، بعناية: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د.ت.

٢٦) ظاهرة التأنيث بين اللغة العربية واللغات السامية دراسة لغوية تأصيلية ، د. إسماعيل عمايرة، ط١، مركز الكتاب العلمي، عمان، ١٩٨٦.

٢٧) في بناء الجملة العربية ، د. محمد حماسة عبد اللطيف ، ط١، دار القلم ، الكويت ، ١٩٨٢.

٢٨) في النحو العربي نقد وتوجيه ، د. مهدي المخزومي ، ط١، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٦٤.

٢٩) الكتاب، سيبويه (ت١٨٠هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، عالم الكتب، بيروت، د.ت.

٣٠) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، انتشارات آفتاب، طهران، د.ت.

٣١) لطائف قرآنية، صلاح عبد الفتاح الخالدي، ط١، دار القلم، دمشق، ١٩٩٢.
٣٢) ماءات القرآن ، جامع العلوم النحوي (ت٥٤٢هـ)، تحقيق : د.عبد القادر السعدي ، ط١، دار الأنبار للطباعة، العراق، ٢٠٠٤.
٣٣) المطوّل شرح تلخيص المفتاح ، سعد الدين التفتازاني (ت٧٩٢هـ)، تصحيح: احمد عزو عناية، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٤.
٣٤) معاني النحو، د.فاضل السامرائي، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٧.
٣٥) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، ابن هشام الأنصاري (ت٧٦١هـ)، تحقيق : د.مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، ط٢، دار الفكر، د.ت.
٣٦) المقتضب، محمد بن يزيد المبرّد (ت٢٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، د.ت.
٣٧) من أسرار اللغة، د. إبراهيم أنيس، ط٨، مكتبة الأنجلو المصرية، د.ت.
٣٨) من بلاغة القران، احمد احمد بدوي، دار النهضة، مصر، ١٩٥٠.
٣٩) نتائج الفكر ، السهيلي (ت٥٨١هـ)، تحقيق : محمد إبراهيم البنا ، منشورات جامعة قار يونس، ليبيا.
٤٠) نحو القرآن ، د. احمد عبد الستار الجواري، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد ، ١٩٧٤.
٤١) نحو نظرية لسانية عربية حديثة لتحليل التراكيب الأساسية في اللغة العربية ، د. مازن الوعر، ط١، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٧.
٤٢) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، فخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ)، تحقيق : د. إبراهيم السامرائي، ود. محمد بركات، دار الفكر، عمان، ١٩٨٥.

ثانياً : الرسائل الجامعية:

١) ظاهرة التنكير وأثرها في بناء الجملة العربية وتوجيهها . رسالة ماجستير قدّمها : خير الدين فتاح، إلى كلية الآداب، جامعة الموصل، بإشراف كاتب البحث، ٢٠٠١.

ثالثاً : المصادر الأجنبية:

1) VonSoden, w., GAG, Roma, 1969.